

تفسير البغوي

98 - قوله تعالى : { فلولا كانت { أي : فهلا كانت { قرية } ومعناه : فلم تكن قرية لأن في الاستفهام ضربا من الجحد أي : أهل قرية { آمنت } عند معاينة العذاب { فنفعها إيمانها { في حالة البأس { إلا قوم يونس } فإنه نفعهم إيمانه في ذلك الوقت و { قوم } نصب على الاستثناء المنقطع تقديره : ولكن قوم يونس { لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين } وهو وقت انقضاء آجالهم .

واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عيانا أم لا ؟ فقال بعضهم : رأوا دليل العذاب ؟ والأكثر على أنهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله : { كشفنا عنهم عذاب الخزي } . والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قرب .

وقصة الآية - على ما ذكره عبد الله بن مسعود و سعيد بن جبير و وهب وغيرهم - أن قوم يونس كانوا بنيونى من أرض الموصل فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا فقبل له : أخبرهم أن العذاب مصيبتهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصيبتكم فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل .

وقال وهب غامت السماء غيما أسود هائلا يدخل دخانا شديدا فهبط حتى تغشاهم في مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس نبيهم فلم يجدوه وقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحن بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت أصواتها بأصواتهم وعجوا وتضرعوا إلى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس فرحمهم ربه فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أضلهم وذلك يوم عاشوراء وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئا وكان من كذب ولم تكن له بينة قتل فقال يونس : كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم ؟ فانطلق عاتبا على ربه مغاضبا لقومه فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجر فلما دخلها وتوسط بهم ولججت وفتت السفينة لا ترجع ولا تتقدم قال أهل السفينة : إن لسفينتنا لشأنا قال يونس : قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة قالوا ومن هو ؟ قال : أنا اقدفوني في البحر قالوا : ما كنا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك واستهموا فاقترعوا ثلاث مرات فأدحض سهمه والحوت عند رجل السفينة فاغرا فاه ينتظر أمر ربه فيه فقال يونس : إنكم

واﻟﻠﻪ ﻟﺘﻬﻠﻜﻦ ﺟﻤﻴﻌﺎ ﺃﻭ ﻟﺘﻄﺮﺣﻨﻨﻲ ﻓﻴﻬﺎ ﻓﻘﺪﻓﻮﻩ ﻓﻴﻬﺎ ﻭﺍﻧﻄﻠﻘﻮﺍ ﻭﺁﺧﺬﻩ ﺍﻟﺤﻮﺕ .

ﻭﺭﻭﻱ : ﺃﻥ ﺍﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﺃﻭﺣﻰ ﺇﻟﻰ ﺣﻮﺕ ﻋﻈﻴﻢ ﺣﺘﻰ ﻗﺼﺪ ﺍﻟﺴﻔﻴﻨﻪ ﻓﻠﻤﺎ ﺭﺁﻩ ﺁﻫﻞ ﺍﻟﺴﻔﻴﻨﻪ ﻣﺜﻞ ﺍﻟﺠﺒﻞ ﺍﻟﻌﻈﻴﻢ ﻭﻗﺪ ﻓﻐﺮ ﻓﺎﻩ ﻳﻨﻈﺮ ﺇﻟﻰ ﻣﻦ ﻓﻲ ﺍﻟﺴﻔﻴﻨﻪ ﻛﺄﻥﻩ ﻳﻄﻠﺐ ﺷﻴﺌﺎ ﺧﺎﻓﻮﺍ ﻣﻨﻪ ﻭﻟﻤﺎ ﺭﺁﻩ ﻳﻮﻧﺲ ﺯﺝ ﻧﻔﺴﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﺎﺀ .

ﻭﻋﻦ ﺍﺑﻦ ﻋﺒﺎﺱ : ﺃﻧﻪ ﺧﺮﺝ ﻣﻐﺎﻀﺒﺎ ﻟﻘﻮﻣﻪ ﻓﺄﺗﻰ ﺑﺤﺮ ﺍﻟﺮﻭﻡ ﻓﺈﺫﺍ ﺳﻔﻴﻨﻪ ﻣﺸﺤﻮﻧﻪ ﻓﺮﻛﺒﻬﺎ ﻓﻠﻤﺎ ﻟﺠﺖ ﺍﻟﺴﻔﻴﻨﻪ ﺗﻜﻔﺄﺕ ﺣﺘﻰ ﻛﺎﺩﻭﺍ ﺃﻥ ﻳﻐﺮﻗﻮﺍ ﻓﻘﺎﻝ ﺍﻟﻤﻼﺣﻮﻥ : ﻫﺎﻫﻨﺎ ﺭﺟﻞ ﻋﺎﺹ ﺃﻭ ﻋﺒﺪ ﺁﺑﻖ ﻭﻫﺬﺍ ﺭﺳﻢ ﺍﻟﺴﻔﻴﻨﻪ ﺇﺫﺍ ﻛﺎﻥ ﻓﻴﻬﺎ ﺁﺑﻖ ﻻ ﺗﺠﺮﻱ ﻭﻣﻦ ﺭﺳﻤﻨﺎ ﺃﻥ ﻧﻘﺘﺮﻉ ﻓﻲ ﻣﺜﻞ ﻫﺬﺍ ﻓﻤﻦ ﻭﻗﻌﺖ ﻋﻠﻴﻪ ﺍﻟﻘﺮﻋﻪ ﺍﻟﻘﻴﻨﺎﻩ ﻓﻲ ﺍﻟﺒﺤﺮ ﻭﻻﻥ ﻳﻐﺮﻕ ﻭﺍﺣﺪ ﺧﻴﺮ ﻣﻦ ﺃﻥ ﺗﻐﺮﻕ ﺍﻟﺴﻔﻴﻨﻪ ﺑﻤﺎ ﻓﻴﻬﺎ ﻓﺎﻗﺘﺮﻋﻮﺍ ﺗﻼﺕ ﻣﺮﺍﺕ ﻓﻮﻗﻌﺖ ﺍﻟﻘﺮﻋﻪ ﻓﻲ ﻛﻠﻬﺎ ﻋﻠﻰ ﻳﻮﻧﺲ ﻓﻘﺎﻝ ﻳﻮﻧﺲ : ﺃﻧﺎ ﺍﻟﺮﺟﻞ ﺍﻟﻌﺎﺹﻲ ﻭﺍﻟﻌﺒﺪ ﺍﻻﺑﻖ ﻓﺄﻟﻘﻰ ﻧﻔﺴﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﺎﺀ ﻓﺎﺑﺘﻠﻌﻪ ﺣﻮﺕ ﺗﻢ ﺟﺎﺀ ﺣﻮﺕ ﺁﺧﺮ ﺃﻛﺒﺮ ﻣﻨﻪ ﻭﺍﺑﺘﻠﻌﻪ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﺤﻮﺕ ﻭﺃﻭﺣﻰ ﺍﻟﻪ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﺤﻮﺕ ﻻ ﺗﯘﺫﻱ ﻣﻨﻪ ﺷﻌﺮﻩ ﻓﺈﻧﻲ ﺟﻌﻠﺖ ﺑﻄﻨﻜﻲ ﺳﺠﻨﻪ ﻭﻟﻢ ﺃﺟﻌﻠﻪ ﻃﻌﺎﻣﺎ ﻟﻚ .

ﻭﺭﻭﻱ ﻋﻦ ﺍﺑﻦ ﻋﺒﺎﺱB ﻫﻤﺎ ﻗﺎﻝ ﻧﻮﺩﻱ ﺍﻟﺤﻮﺕ : ﺇﻧﺎ ﻟﻢ ﻧﺠﻌﻞ ﻳﻮﻧﺲ ﻟﻚ ﻗﻮﺗﺎ ﺇﻧﻤﺎ ﺟﻌﻠﻨﺎ ﺑﻄﻨﻜﻲ ﻟﻪ ﺣﺮﺯﺍ ﻭﻣﺴﺠﺪﺍ .

ﻭﺭﻭﻱ : ﺃﻧﻪ ﻗﺎﻡ ﻗﺒﻞ ﺍﻟﻘﺮﻋﻪ ﻓﻘﺎﻝ : ﺃﻧﺎ ﺍﻟﻌﺒﺪ ﺍﻟﻌﺎﺹﻲ ﻭﺍﻻﺑﻖ ﻗﺎﻟﻮﺍ : ﻣﻦ ﺃﻧﺖ ؟ ﻗﺎﻝ : ﺃﻧﺎ ﻳﻮﻧﺲ ﺑﻦ ﻣﺘﻰ ﻓﻌﺮﻓﻮﻩ ﻓﻘﺎﻟﻮﺍ : ﻻ ﻧﻠﻘﻴﻚ ﻳﺎ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻪ ﻭﻟﻜﻦ ﻧﺴﺎﻫﻢ ﻓﺨﺮﺟﺖ ﺍﻟﻘﺮﻋﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻓﺄﻟﻘﻰ ﻧﻔﺴﻪ ﻓﻲ ﺍﻟﻤﺎﺀ .

ﻗﺎﻝ ﺍﺑﻦ ﻣﺴﻌﻮﺩB ﻫ : ﺍﺑﺘﻠﻌﻪ ﺍﻟﺤﻮﺕ ﻓﺄﻫﻮﻱ ﺑﻪ ﺇﻟﻰ ﻗﺮﺍﺭ ﺍﻟﺄﺭﺽ ﺍﻟﺴﺎﺑﻌﻪ ﻭﻛﺎﻥ ﻓﻲ ﺑﻄﻨﻪ ﺃﺭﺑﻌﻴﻦ ﻟﻴﻠﻪ ﻓﺴﻤﻊ ﺗﺴﺒﻴﺢ ﺍﻟﺤﺼﻰ ﻓﻨﺎﺩﻱ ﻓﻲ ﺍﻟﻈﻠﻤﺎﺕ : ﺃﻥ ﻻ ﺇﻟﻪ ﺇﻻ ﺃﻧﺖ ﺳﺒﺤﺎﻧﻚ ﺇﻧﻲ ﻛﻨﺖ ﻣﻦ ﺍﻟﻈﺎﻟﻤﻴﻦ ﻓﺄﺟﺎﺏ ﺍﻟﻪ ﻟﻪ ﻓﺄﻣﺮ ﺍﻟﺤﻮﺕ ﻓﻨﺒﺬﻩ ﻋﻠﻰ ﺳﺎﺣﻞ ﺍﻟﺒﺤﺮ ﻭﻫﻮ ﻛﺎﻟﻔﺮﺥ ﺍﻟﻤﻤﻌﻂ ﻓﺄﻧﺒﺖ ﺍﻟﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﺷﺠﺮﻩ ﻣﻦ ﻳﻘﻄﻴﻦ ﻭﻫﻮ ﺍﻟﺪﺑﺎﺀ ﻓﺠﻌﻞ ﻳﺴﺘﻄﻞ ﺗﺤﺘﻬﺎ ﻭﻭﻛﻞ ﺑﻪ ﻭﻋﻠﻪ ﻳﺸﺮﺏ ﻣﻦ / ﻟﺒﻨﻬﺎ ﻓﻴﺒﺴﺖ ﺍﻟﺸﺠﺮﻩ ﻓﻴﻜﻰ ﻋﻠﻴﻬﺎ ﻓﺄﻭﺣﻰ ﺍﻟﻪ ﺇﻟﻴﻪ : ﺗﺒﻜﻲ ﻋﻠﻰ ﺷﺠﺮﻩ ﻳﺒﺴﺖ ﻭﻻ ﺗﺒﻜﻲ ﻋﻠﻰ ﻣﺎﺋﺔ ﺃﻟﻒ ﺃﻭ ﻳﺰﻳﺪﻭﻥ ﻭﺃﺭﺩﺕ ﺃﻥ ﺃﻫﻠﻜﻬﻢ ﻓﺨﺮﺝ ﻳﻮﻧﺲ ﻓﺈﺫﺍ ﻫﻮ ﺑﻐﻼﻡ ﻳﺮﻋﻰ ﻓﻘﺎﻝ : ﻣﻦ ﺃﻧﺖ ﻳﺎ ﻏﻼﻡ ؟ ﻗﺎﻝ : ﻣﻦ ﻗﻮﻡ ﻳﻮﻧﺲ ﻗﺎﻝ : ﺇﺫﺍ ﺭﺟﻌﺖ ﺇﻟﻴﻬﻢ ﻓﺄﺧﺒﺮﻫﻢ ﺃﻧﻲ ﻟﻘﻴﺖ ﻳﻮﻧﺲ ﻓﻘﺎﻝ ﺍﻟﻐﻼﻡ : ﻗﺪ ﺗﻌﻠﻢ ﺃﻧﻪ ﺇﻥ ﻟﻢ ﺗﻜﻦ ﻟﻲ ﺑﻴﻨﻪ ﻗﺘﻠﺖ ﻗﺎﻝ ﻳﻮﻧﺲ ﻋﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ : ﺗﺸﻬﺪ ﻟﻚ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺒﻘﻌﻪ ﻭﻫﺬﻩ ﺍﻟﺸﺠﺮﻩ ﻓﻘﺎﻝ ﻟﻪ ﺍﻟﻐﻼﻡ : ﻓﻤﺮﻫﺎ ﻓﻘﺎﻝ ﻳﻮﻧﺲ : ﺇﺫﺍ ﺟﺎﺀﻛﻤﺎ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻐﻼﻡ ﻓﺎﺷﻬﺪﺍ ﻟﻪ ﻗﺎﻟﺘﺎ : ﻧﻌﻢ ﻓﺮﺟﻊ ﺍﻟﻐﻼﻡ ﻓﻘﺎﻝ ﻟﻠﻤﻠﻚ : ﺇﻧﻲ ﻟﻘﻴﺖ ﻳﻮﻧﺲ ﻓﺄﻣﺮ ﺍﻟﻤﻠﻚ ﺑﻘﺘﻠﻪ ﻓﻘﺎﻝ : ﺇﻥ ﻟﻲ ﺑﻴﻨﻪ ﻓﺄﺭﺳﻠﻮﺍ ﻣﻌﻲ ﻓﺄﺗﻰ ﺍﻟﺒﻘﻌﻪ ﻭﺍﻟﺸﺠﺮﻩ ﻓﻘﺎﻝ : ﺃﻧﺸﺪﻛﻤﺎ ﺑﺎﻟﻪ ﻫﻞ ﺃﺷﻬﺪﻛﻤﺎ ﻳﻮﻧﺲ ؟ ﻗﺎﻟﺘﺎ : ﻧﻌﻢ ﻓﺮﺟﻊ ﺍﻟﻘﻮﻡ ﻣﺬﻋﻮﺭﻳﻦ ﻭﻗﺎﻟﻮﺍ ﻟﻠﻤﻠﻚ : ﺷﻬﺪ ﻟﻪ ﺍﻟﺸﺠﺮﻩ ﻭﺍﻟﺄﺭﺽ ﻓﺄﺧﺬ ﺍﻟﻤﻠﻚ ﺑﻴﺪ ﺍﻟﻐﻼﻡ ﻭﺃﺟﻠﺴﻪ ﻓﻲ ﻣﺠﻠﺴﻪ ﻭﻗﺎﻝ : ﺃﻧﺖ ﺃﺣﻖ ﺑﻬﺬﺍ ﺍﻟﻤﻜﺎﻥ ﻣﻨﻲ ﻓﺄﻗﺎﻡ ﻟﻬﻢ ﺃﻣﺮﻫﻢ ﺫﻟﻚ ﺍﻟﻐﻼﻡ ﺃﺭﺑﻌﻴﻦ ﺳﻨﻪ